الساعة الخامسة والعشرون

بقلم : فاروق خورشيد

قال تريان كوروغا لأبيه وصديقه اثر عودته من العاصمة الى منزل أسرته فى الريف :

ـ ان أشخاص روايتى القادمة سيكونون من الرجال الذين يعيشون على سطح الكرة الأرضية ! ولما كان هومير نفسه يعجز عن كتابة قصة أبطالها ملياران من الأشخاص ، فاننى بدورى لن آخذ الا عددا قليلا ، لا يتجاوز العشرة لأننى لن أحتاج الى أكثر من هذا العدد ٠٠ ومع ذلك فان هؤلاء العشرة سيحيون نفس الحوادث التى سيحياها الآخرون ٠٠

وحين تبادل سامعوه أسئلة الحيرة والدهشة عن كيفية انتقاء هؤلاء العشرة قال تريان :

ـ لسوف أعنى فى ايراد حوادث لا يمكن للمخلوق البشرى أن ينجو من الوقوع فى مثلها ، ولن أكون فى حاجة الى شخصيات تقوم بدور البطولة أو تكون ذات أهمية معينة ٠ بل سأترك للصدف أمر ابرازهم ٠ وعلى ذلك فاننى سأنتقى من مليارين من البشر ، عشرة أعرفهم أكثر من سواهم ، أسرة كاملة : أسرتى مثلا ، أبى وأمى وأنا وأنت وخدم أبى ، وبعض الأصدقاء والجيران ٠٠

وكان تريان يؤمن أن حدثا خطيرا قد وقع ، حقا انه يجهل أين انفجر ومتى بدأ ولكنه واثق أنه وقع وأنه سيدوم ويقول :

ـ اننى أشعر بهذا الحدث الهائل ، شعورا لا يضاهيه الا احساس الجرذان المسبق الذى يدعوهم الى هجر مركب على وشك الغرق ٠ لن يكون لنا أى مأوى فى أى مكان من العالم ٠

انه خوف يملأ قلبه من ثورة بدأت بالفعل ، ولن يحس الناس بها تأخذ بخناقهم الا تدريجيا ، وحين يفيقون الى الخطر لن تكون هناك منجاة منه ٠٠ انها ثورة الرقيق الجديدة ٠٠ ثورة الرقيق الآلى الذى حل فى حياة البشرية محل الرقيق البشرى القديم ٠٠ فان الحياة اليوم تتحرك بجهد عشرات المليارات من الرقيق الفنيين أو الميكانيكيين ، فالبواخر اليوم لم تعد تسير بقوة عضلات العبيد الذين كانوا يسيرون السفن القديمة ، بل بقوة الرقيق الفنى ٠ وعندما يحل الظلام فان الرجل الثرى لم يعد يضرب كفيه آمرا عبيده بالمجىء حاملين المشاعل كما كان يفعل سلفه فى روما وأثينا ، بل انه يدير زرا فيقوم الرقيق الفنى بانارة غرفته ٠٠ ويقول تريان شارحا رؤيته المخيفة :

ـ ان العبيد الفنيين يشكلون اليوم ، أكثرية عددية ساحقة فى المجتمع الحاضر ، تلك حقيقة ملموسة • انهم يتصرفون فى هذا المجتمع ، وفق قوانين خاصة ، مختلفة عن قوانين البشر • ولن أذكر من هذه القوانين الخاصة بالعبيد الفنيين الا : الآلية ، والمماثلة ، واغفال الذات ••

ان هذه الرؤية الشعرية تبدو كالنبوءة المخيفة التى تلقى بظلها الثقيل فوق انفاس البشرية فهى تعنى أننا ـ نحن البشر ـ كأقلية عددية فى دنيا الآلة سنضطر كى تستمر الآلة على خدمتنا أن نتخلى عن انسانيتنا خطوة خطوة لنتعلم أسلوب حياة عبيدنا الميكانيكيين •• ويقول تريان كوروغا :

ـ ستكون دلالة التخلى عن الانسانية ، احتقار الكائن البشرى • ان الرجل العصرى يعرف أنه وزملاءه من بنى الانسان ، ليسوا الا عبارة عن عناصر يمكن استبدالها •• والمجتمع الحديث الذى يحتوى على رجل واحد ، مقابل كل ثلاثين عبدا فنيا ، ينبغى أن ينظم وأن يعمل حسب النظم الفنية • لأنه مجتمع خلق وبنى على احتياجات ميكانيكية وليست انسانية • وهنا تبدأ الفاجعة ••

ويوضح تريان هذه الرؤية الرهيبة قائلا :

ـ ان هذا التحول البطىء سيقلب الكائن الحى ، وسيجعله متخليا عن احساساته وعلاقاته الاجتماعية ويجعلها محصورة فى حدود ضيقة ، واضحة ، آلية تماما ، كتلك العلاقات التى تجمع بين قطعة آلة وأخرى• وسوف يقلد البشر فى علاقاتهم الاجتماعية، وفى الادارة ، وفنون النقش والرسم ، والأدب وفى الرقص ، الاسلوب واللغة الخاصين بالرقيق الآلى وستصبح المخلوقات البشرية ببغاوات ، تنقل رغبات العبيد الميكانيكيين، غير أن كل هذا ليس الا بداية الفاجعة • من هذه البداية تبدأ كذلك روايتى ، وأقصد حياة أبى وأمى وحياتى وحياة الآخرين ••

ان الفاجعة فى نبوءته سوف تنفجر من الصدام بين الطبيعة البشرية والآلة •• وقد بدأ هذا الصدام بالفعل فالبشر لا يمكن أن يتحولوا الى آلات ولكنهم سوف يخسرون المعركة التى لا بد أن يربحها الخدم الميكانيكيون الذين يشكلون الأغلبية الساحقة فى هذا العالم •

ويقول صديق تريان فى ذعر :

ـ ان تشاؤمك عنيف جدا •

فيقول تريان فى اندفاع :

ـ اننى شاعر يا جورج • أملك شعورا يسمح لى بالتنبؤ بالمستقبل لا يملك الآخرون مثله ان الشاعر نبى ،اننى آسف اذ أتنبأ بأشياء مفجعة كهذه • لكن مهمتى كشاعر ترغمنى على ذلك • ينبغى أن أصرخ ، وأن أحمل الاصداء قولى حتى ولو كان قولا ممجوجا • وتصبح الرؤية مجسمة ورهيبة حين يرسم تريان صورة الانسان فى هذا المجتمع :

ـ ان أى شىء يمكن أن يحدث للانسان ، طالما قد تحول الرجل الى نسبة ، ذات قيمة آلية اجتماعية ، انه بوصفه هذا يتعرض للاصابة بأى شىء ٠٠ يمكن أن يعتقل ، وأن يرسل للقيام بالاعمال الشاقة ، بل وأن يستأصل من جذوره ٠٠ فهو يمكن أن يرغم على مزاولة أعمال معينة سواء لتحسين العنصر أو لاهداف أخرى ضرورية للمجتمع الآلى ، دون أن ينظر الى شخص بعين الاعتبار ٠ ان المجتمع الآلى يعمل فقط بناء على نظم آلية تهدف الى مشاريع معينة وتعمل بوحى واحد : وهو الانتاج ٠٠

هذه هى الرواية التى يكتبها تريان ، رواية عذاب الانسان الرهيب والآلة تأكله لتسيره ، وتتحكم فيه ليكون دائما فى خدمتها وخدمة نظمها ٠٠ وحين يسأله صديقه عن عنوانها يقول :

ـ الساعة الخامسة والعشرون ٠ اللحظة التى تكون فيها كل محاولة للانقاذ عديمة الجدوى ، بل ان قيام مسيح فيها لن يجدى فتيلا ٠ انها ليست الساعة الأخيرة ، بل هى ساعة بعد الساعة الأخيرة ، ساعة المجتمع الغربى ، انها الساعة الحاضرة ٠٠

هذه هى الرواية التى كتبها جيور جيو الكاتب الرومانى الذى لم يعرفه العالم الا من خلال كتابه الفذ هذا ، واسمه الكامل كونستانتان ، فيرجيل ، جيور جيو ، وهو من مواليد رومانيا عام ١٩١٦ ، ودرس اللاهوت والفلسفة فى جامعتى بوخارست وهيدلبرج وفاز بالجائزة الملكية للشعر فى رومانيا عام ١٩٤٠ ٠٠ ثم كتب كتابه هذا واعتزل الحياة بعده فى دير متوحد بعيد ٠٠

وهذا الكتاب لم تظهر طبعته الأولى فى رومانيا بل صدرت فى فرنسا ، كما لم يظهر بلغته الأصلية بل ظهر فى ترجمة فرنسية ٠٠ ويقول الناشر « ان المؤلف لمس لأسباب جد بديهية استحالة نشر كتابه فى موطنه » ويقول جابرييل مارسيل فى مقدمة الطبعة بالفرنسية « أكاد أجزم ان جانب الاختلاق فى « الساعة الخامسة والعشرون » يكاد أن يكون مغفلا ٠ لست أريد أن أقول ان كل ما فى هذا الكتاب انما هو ترجمة وقائع شخصية دقيقة ، برغم أن المؤلف وزوجه عانيا شخصيا بعضا من من أقسى المحن المدرجة فيه ٠ لكن ماعمله السيد جيورجيو ، كان مقتصرا على جمع عناصر هذه القصة المبعثرة ، التى هى فى جوهرها أصدق ما يمكن قراءته وبالتالى أقل نفعا بالنسبة لمتشيع لا يخرج عن كونه متشيعا فحسب ٠ ولا يمكن لهذا الكتاب أن يستقل من جانب واحد من الاحزاب القائمة حاليا ، وهذا أثمن مايبدو فيه » ٠

والذى لا شك فيه أن عمل القصاص فى هذه الرواية ينبنى على كثير من الرصد الدقيق للصورة الرهيبة البشعة التى تحولت اليها قيمة الانسان فى أوروبا الوسطى ابان الحرب العالمية الثانية حيث حل الحقد والخوف والتشفى مكان الوشائج الطبيعية التى تربط الانسان بأخيه ٠٠ وحيث حل الاعتقال والموت والضياع محل الحرية والحياة والوجود ٠٠ وحيث حلت قيمة المعسكرات المتنازعة ومصلحتها وأمنها محل كل اعتبار لقيمة الانسان كانسان له حقه فى الوجود ، وله حقه فى الحماية ٠٠

وأبطال القصة كما وعد تريان هم هو ومن يعرف ٠٠هو وزوجته وأبوه وخادمه ٠٠

هم أهل قريته الوادعة البسيطة التى تعيش وسط ريف رومانيا بعيدة عن كل الشهوات التى تتنازع العالم وتدمره ·· ولكن العالم يزحف اليها حيث هى ، يزحف اليها ليدمرها ويفنيها ·· يزحف اليها ليجعل منها ومن الناس البسطاء فيها تروسا فى عجلة الوحش الدائر الذى يقضم كل يوم قيمة جديدة من قيم الانسان ليقتات عليها ويحيلها نفاية وبقايا ورمادا ··

ايوهان موريتز المزارع الشاب الصغير الذى يعمل خادما فى كنيسة الراعى كوروغا والد تريان يحب ·· ولكن الحب هذه الأيام لا يعيش الا فى الخفاء وسط الحشائش العالية وخلف الاشجار الغليظة ، فاذا ما انكشف انقضت عليه مفاهيم العصر تحطمه وتقضى عليه ·· فأبو حبيبته آرى متعصب لا يرضى لابنته أن تتزوج رومانيا فلاحا ، والسوط لها ان أحبت ، والسوط لامها حتى تموت ان لم يجد الفتاة يشفى بتعذيبها غليله ويرضى ثورته العارمة ·· فاذا ماماتت الام وساقه الشرطه لم يسأل سوى عن مصير خيوله ، فالخيل لا الانسان هو حلم رجل الحرب العتيد سليل الآريين ·

وبين صليل القيود فى يد الأب وحفنات التراب تنهال فوق قبر الام ، وصيحات الاشمئزاز والاستنكار من الحماة السليطة تتزوج سوزانا من ايوهان موريتز ·· ولكن السعادة لا تعرف طريقا الى العش الصغير فرئيس الشرطة فى القرية يطمع فيها وهى تصده ، والعصر يعطيه السلاح ليبعد الزوج عن طريقه الى الزوجة العنيدة فحين طلب منه السلطات اعتقال اليهود ليعملوا فى بناء سور يحمى رومانيا من الغزو يضع اسم ايوهان على رأس القائمة ·· وذات صباح يغادر أيوهان القرية فى طريقه الى المعتقل الكبير وصيحات احتجاجه لا تجدى ومحاولاته العديدة فى أن يفهم سر اعتقاله لاتجد أذنا تصغى ··

وفى معتقل اليهود ينكره كل من فى المعسكر فهو ليس مثلهم ، لا يعيش حياتهم ولا يتكلم لغتهم ولا يدين بدينهم ، ولا يحمل حقدهم الأسود الرهيب على رومانيا التى اعتقلته ظلما بينهم ·· ويحاول هو أن يعلن أن ثمة خطأ قد حدث فهو مسيحى معمد وليس معقولا أن يسجن بادعاء أنه يهودى ·· ولكن دعواه لاتجد من يستمع اليها فليس لدى الحراس وقت يضيعونه مع سجين يهذى ويكذب ويخلق لهم المشاكل العويصة ·

ولكن القس كوروغا الذى كان ايوهان خادما فى كنيسته لا يستطيع أن يسكت كما سكت الآخرون خوفا وجبنا فيمضى يطرق كل باب يحاول أن يدخل فى أذهان المسئولين وما أكثرهم أن ايوهان راح ضحية خطأ أو ضحية مؤامرة ·· وكان فى البدء يعتقد أن الأمر سهل فهو قسيس القرية وهو الذى عمد أيوهان بيديه ·· ولكنه سرعان ما بدأ يدرك أن الأمر ليس كما كان يتصور ·· عشرات الموظفين ، وعشرات المسئولين كل يحيله الى الآخر ·· وعشرات الساعات تروح وهو فى انتظار أمام باب مغلق ، لينتهى منه الى الوقوف أمام باب آخر مغلق يحرسه السعاة والجنود ··وانتهى به المطاف عند المحافظ الذى كان صريحا وواضحا ·· لامكان لمشكلة ايوهان وسط

عديد المشاكل التى تواجهها الدولة وهى فى حالة حرب ·· وبخطى مثقلة يسير القسيس عبر المدينة ليقف أمام كنيسة عند مدخلها ، ويركع على قدميه ليهمس صلاته المريرة :

« لنصل الآن ، من أجل أولئك الذين يمتلكون جزءا حقيرا من السلطة ، لنصل من أجل كل أولئك الذين علينا أن نحتمل بينهم ظلم الدولة وعذابها ، من أجل أولئك الذين يحققون ثم يعيدون التحقيق للتاكد من صحته ، من أجل أولئك الذين يعطون الصلاحيات ويشرعون الممنوعات ، لنبتهل ألا يؤمنوا بالحرف والرقم ، فيعتبروهما أكثر حقيقة وأشد حياة من اللحم والدم ·· »

ولكن ايوهان يبقى فى معسكر اليهود يبنى سورا لا يعرف مداه ولا نهايته ويحفر الطريق ويرفع الأتربة ويتحمل اهانات اليهود وسخرية الحرس ·· ولكن الصدف تدفعه فى طريق مجموعة من اليهود تستعد للهرب من المعسكر برشوة سخية يقدمونها للحارس ويحتاجون الى من يحمل لهم الأمتعة فى طريق هربهم الشاق الى بلغاريا ·· ويقع أيوهان فريسة اغراءاتهم له بالحرية والعمل والسعادة فى الأرض الجديدة فيرافقهم فى الطريق يحمل لهم الأمتعة وهم السادة وهو الخادم الفلاح المسيحى الذى يسير وراءهم كالكلب يتبع سادته ·· وفى بلغاريا يتخلى عنه أصحابه اليهود ويفرون الى أمريكا أما هو فيقع من جديد فى يد سلطات بلغاريا بصفته جاسوسا رومانيا متسللا ، وفى المعتقل الجديد يلقى أهوال عذاب رهيب لينتزع منه المحققون أسماء من تسللوا معه الى بلغاريا وحقيقة مهمتهم فيها ·· وهو لا يعرف الا أن جسده يحترق وأن جلده يتمزق وأن الألم رهيب وأن الصراخ لا يجدى والحقيقة لا قيمة لها ·· وتظهر خادمة صغيرة كانت تعمل عند أقارب هؤلاء اليهود الهاربين لتؤيد قصته وتؤكد أنه ضحية وأنه لا يعرف من كل ما يريدون شيئا ·· ويفرج عن أيوهان ليوضع من جديد فى معتقل آخر تمهيدا للبت فى أمره ··

وبلغاريا حليفة لألمانيا وهى لا تملك الا أن تكون حليفة بدلا من الاحتلال السافر الرهيب ، وحين تطلب ألمانيا من حليفتها خمسين ألف عامل ليعملوا فى مصانعها يقع مجلس وزرائها فى اشكال رهيب ·· فهو ان وافق تحمل مسئولية تسليم المواطنين للرق الألمانى ، وهو ان رفض عرض البلاد كلها لانتقام بشع وأسلم كل البلغاريين للرق الألمانى ·· ويأتى الحل العبقرى الذى ينفذ للألمان ما يشاءون دون مساس بحرية أهل بلغاريا أنفسهم ·· لقد قرر مجلس الوزراء أن يرحل الى ألمانيا كل الأجانب المعتقلين فى الأرض البلغارية باعتبارهم من البلغار ، ولن يهم الألمان سوى الخمسين ألفا من الايدى العاملة ·· ويقول الكونت بارثولى رئيس الصحافة البلغارية لابنه لوسيان :

ـ ألا تشعر ياولدى بامتهان عند ما تعرف أن أباك قد ساهم اليوم فى عقد صفقة بيع أحياء آدميين ؟ ان هذا النوع من التجارة هو آخر مرحلة على سلم الانحطاط الخلقى ··

ويقول لوسيان :

ـ ينبغى ألا تنظر الى الأمور من هذه الزاوية المؤسيه • ان العمال الموفدين الى ألمانيا لن يكونوا مغلولى الأيدى • انهم يذهبون الى هناك كعمال ••

ويقول الكونت فى مرارة :

ـ لن يغلوا فى الحديد لأنهم لن يستطيعوا فرارا • ان المجتمع المعاصر يملك من الوسائل للاحتفاظ بالرقيق مالم يملكه اليونان من قبل • اننى لا أفكر فقط فى المدافع الرشاشة وحواجز الأسلاك الشائكة التى يمر بها تيار كهربائى صاعق •• بل أفكر كذلك فى الأساليب التعسفية للآلية التى يعمد اليها النظام البيروقراطى للرقابة على الكائن الحى • وأقصد بطاقات الاعاشة وأذون رجال الشرطة للحصول على سرير فى الفندق أو ركوب الأوتوبيس أو التنزه فى الشارع أو ابدال المسكن • ان اليونان والمصريين ما كانوا ليكبلوا أيدى عبيدهم وأرجلهم بالحديد لو كانت لديهم الوسائل التى لمجتمعنا المتدين • غير أن الرقيق لم يتبدل ••

ويرفض لوسيان أن يقتنع بكلام أبيه فاجراء مجلس الوزراء يرضيه ، بل هو عنده اجراء بارع ، ومصير المعتقلين لايشغل باله على الاطلاق •• فيقول الكونت :

ـ ان هذا أشد خطورة لأن معناه أنك لا تملك ذرة من الاحترام للكائن البشرى • ولما كنت بشرا كذلك فان معناه أنك فقدت كل احترام لنفسك ••

ولكن الأمر قد تقرر وايوهان موريتز يرحل الى ألمانيا بصفته عاملا بلغاريا ، واحدا من خمسين ألف عامل يشكلون بعثة الصداقة بين عمال بلغاريا وألمانيا الحليفة ويحشد مع غيره فى قطار طويل يسير ليلا ويقف عند النهار •• وما أن يصل حتى يحاط بالورود وتنشد حوله الأناشيد ويسلم ايوهان الى سيده الجديد ••

وسيد ايوهان الجديد هو الآلة سافرة بغير حجب هذه المرة •• انها الآلة التى عليه أن يعمل أمامها فى المصنع الالمانى الذى أرسل اليه •• ويقول له الموظف الألمانى الذى كلف بارشاده الى العمل :

ـ ان الانسان الآلى لا يمكنه أن ينطبع برغبة الانسان ، فعليك اذن أن تساير رغباته وتوازن حركاتك مع حركاته •• ان هذا طبيعى جدا ، لأنه هو العامل الكامل•• أما أنت فانك لست كاملا • لا يستطيع الانسان ، أى انسان أن يكون عاملا كاملا ، أما الآلات فانها وحدها تستطيع أن تكون كذلك ، ينبغى أن تمعن النظر فيها لتتعلم كيفية العمل • هل فهمت ؟ ان الآلات تعلمك الترتيب والنظام والكمال • فاذا حاكيتها غدوت عاملا من الدرجة الأولى • لكنك لن تستطيع أن تكون عاملا من الدرجة الأولى لانك بلغارى ، والبلغاريون فى المصانع ينظرون الى النساء وليس الى الآلات •

ويدور ايوهان مع الآلة ويدور ، ويسقط صريعا فيذهب الى المستشفى ثم يعود أمام الآلة •• تأتى له بالصندوق ليرفعه الى مكانه تحمله آلة أخرى الى العربات ، كل ساعات نهاره تضبط حركته الآلة ، وحين يتحرك به الخيال حول هذه الصناديق

المغلقة يختل النظام وتثور عليه الآلات ويخطىء ويعاقب ·· ومن يومها يرفض حتى التفكير ، انه مع الآلة وأمام الآلة وجودا وفكرا وخيالا وأنفاسا ··

ولكن العمل فى المصنع رغم خضوعه للنظام لا يأتى بالنتائج المرجوة والتى قررت الارقام من قبل أنها لابد أن تتحقق ، ويقرر الأطباء أن السبب هو بعد الرجال فى المصنع عن النساء ·· وذات مساء تحمل عربات لورى متعددة نساء كثيرات الى العنابر التى ينام فيها الرجال ليعود الانتاج محققا الارقام المقدرة من قبل ·· ويهرب ايوهان من عنابر النوم الى هواء الليل يضرب وجهه المتضرم الثائر ، ويهمس صوت جاره الفرنسى فى الوقوف أمام الآلة قائلا :

ـ انهن بولونيات من معسكرات الاعتقال·ان المعتقلات فى ذلك المعسكر يستعدن حريتهن اذا زاولن هذا العمل مدة ستة شهور ·· غير أنهن خلال هذه الفترة يتهدمن تهديما ·· انهن لا يغادرن معسكرات الاعتقال الا الى المستشفى أو المشرحة ·· انهن لسن محترفات ·· بل هن رقيق مثلنا يبذلن مجهودا يائسا لنيل حريتهن ، انهن رقيق يحاول تحطيم أغلاله بيديه وحدهما دون الاستعانة بأية أداة أخرى ، انهن يمزقن أجسادهن وهن يحاولن تحطيم سلاسلهن وأغلالهن · انه عمل ينطوى على بطولة ، ولكن للأسف ان أغلال العبودية أقوى من الجسد البشرى ··

وفى الصباح هرب جاره الفرنسى ···

ولكن عذاب ايوهان فى المصنع لا يطول ، اذ يكتشف فيه أحد علماء الجنس الآرى الهووسين صورة كاملة لنموذج الرجل الآرى فيصدر أوامره بان يكرم وأن يلحق بالجيش النازى وأن يعتنى به بصفته من (العائلة الشجاعة) أشد قبائل المحاربين الجرمان بأسا منذ أول التاريخ ··

وهكذا ، ويأمر الهر « موالر » غدا ايوهان موريتز آريا وجنديا ألمانيا تقدم له ألمانيا المسكن والزوجة والولد والمكان المرموق ، فهو الآن جندى يحمل بندقية ويحرس السجناء اذ لا تحتمل بنيته التى هدتها المعسكرات والعذاب أى عمل عسكرى آخر يتيح له أن يلبس البدلة العسكرية التى يريده الهرمولر أن يرتديها ··

وتتيح له سترته الجديدة أن يلتقى بصديقه الفرنسى الذى فر من المعسكر والمصنع ، ويغريه أن يساعده هو وزملاء له على الهرب فماذا له فى ألمانيا ، وألمانيا عدوته وعدوة بلاده ، والحرية عند الدول الحليفة التى تدافع عن الانسان ·· ويصدق ايوهان فيهرب مع أسراه الى معسكر الدول الحليفة وهناك يقابل مقابلة الأبطال ، ألم يضع بزوجته وولده ومكانه الجديد فى المجتمع النازى وساعده خمسة من المعتقلين الفرنسيين على الفرار ، انه بطل يستحق التكريم والشيكولاته ، واللبان والسجائر الأمريكية ومكانا فى معسكر (الشرف) وكان ايوهان يحس أنه يحلم وأن الحياة قد أصبحت لينة وأن الخلاص قريب ·· وذات صباح يستدعيه قائد المعسكر فجأة ليبلغه أنه منذ الغد لا مكان له فيه فان معسكر (الشرف) لا يأوى الا رعايا الدول الحليفة ، أما هو فهو عدو للأمم المتحدة ·· ويقول ايوهان فى يأس واحتجاج :

ـ لكننى لم أرتكب شيئا ضد الامم المتحدة ، أقسم لك ياسيدى المدير أننى لم اسىء مطلقا الى الحلفاء ٠

فسأله المدير بصوت قاس :

ـ ألست رومانيا ، ان الرومانيين أعداء الامم المتحدة ، وأنت رومانى واذن فانك تكون عدوا لنا بصورة آلية ٠٠

وهكذا عاد ايوهان من جديد الى المعتقل بصفته رومانيا لأول مرة ، بعد أن دخله بصفته يهوديا وبلغاريا وآريا ٠٠ تتقاذفه جنسية لتسلمه الى جنسية ، ويتقاذفه وطن ليسلمه الى وطن ، وهو حائر طائع تأكله الآلة المخيفة التى اسمها الجماعة والتى اسمها الدولة والتى اسمها النظام ٠٠

وايوهان ليس وحده بطل هذه الرواية الرهيبة ٠٠ ان القس كوروغا له دوره أيضا ، وتريان ولده الكاتب المشهور الذى حاول أن يدافع عن قضية ايوهان أول الأمر ولكنه سرعان ماشغل بقضيته هو اذ كان متزوجا من يهودية ٠٠ فيهرب معها خوف اضطهاد النازى ليلتحقا بالمنطقة الامريكية التى كانت تبدو لهما ملاذا أمينا ٠ ولكن الحاكم الامريكى لم يكن يعرف الا اللوائح وهما يحملان جوازى سفر رومانى ، ورومانيا فى معسكر الاعداء ، اذن لا مكان لهما الا المعتقل ٠٠ ويقول تريان لزوجته وهو فى السجن :

ـ انهم لن يشعروا أبدا بوجودنا ٠ ان الحضارة الغربية فى مرحلتنا التقدمية الأخيرة لم تعد تأبه للفرد ٠ ولا شىء يدعونا الى الأمل انها ستأبه له يوما ٠ ان هذا المجتمع لا يعرف الا بعضا من المقاييس الفردية ٠ أما المخلوق الكامل بصفته الشخصية فانه لا وجود له فى نظره ٠٠ أنت مثلا لست الا مواطنه عدوه اعتقلت فى أرض ألمانية، هذا هو أقصى ما يمكن للمجتمع الغربى الرسمى أن يتخيله عنك ٠٠ ان هذا المجتمع عندما يعتقل أو يقتل أحدا ، لا يعتقل أو يقتل شيئا حيا ، بل فكرة، رمزا ٠٠ وفى المنطق الصحيح لا يمكن أن تعزى اليه هذه الجريمة ٠ لأن أية آلة لا يمكن اتهامها بارتكاب جريمة ، ولا يمكن لأحد أن يطالب آلة بمعاملة الانسان حسب مميزاته الشخصية ٠٠ كل ما أعرفه هو أن اخضاع الانسان للقوانين والمقاييس الاصطلاحية ، وهى مقاييس ممتازة فيما يتعلق بالآلات ، انما يعادل جريمة قتل ٠ ان انسانا يضطر الى الحياة بالشروط وفى الوسط الذى تحيا فيه الأسماك يموت خلال دقائق ٠ والعكس صحيح ٠٠ لقد خلق الغرب مجتمعا مشابها للآلة ٠ انه يرغم بنى الانسان على العيش فى صميم هذا المجتمع ويضطره الى الانسجام مع قوانين الآلة ٠٠ ومتى بلغ بنو البشر فى تشبههم مبلغ الآلات حتى يماثلوها ، فعندئذ لن يبقى بشر فوق سطح الأرض ٠٠

ان القرية الوادعة التى خرج منها ايوهان تنتهى هى الأخرى نهاية فاجعة اذ يدخلها يهودى شيوعى ملأ الاعتقال قلبه بالحقد فمضى يقتل كل من يملك خردلة ، وكل من يحمل صليبا وكل من أهان أهله وذويه من قبل اذ كانوا يعيشون وسط الناس الذين يدير فيهم الذبح منذ أجيال ٠٠

والروس يدخلون القرية وزوجة ايوهان تستباح مع غيرها من نســـاء القرية والحرب الضروس الرهيبة تدور والطحن يقتل فى نفس كل بشرى كل أمل ، كل عزاء، كل سلوى ·· كل انسانية ··

ثم يدخل الأمريكان باللبان والسجائر والثمن لكل عرض والحماسة الجوفاء لقضية موهومة اسمها قضية الغرب ··

ويموت تريان عامدا وهو يسير بعينين مفتوحتين نحو الأسلاك الشائكة التى يقف عندها الحرس شاكى السلاح ·· يموت عامدا دون معنى ودون شىء ، فقد أدرك أن الانســـان فقد كل معنى وكل شىء ولكن كلماته اليائسة تتخللها نبرة أمل واحدة انه يقول :

« ان الرجل سيصبح مغلولا خلال سنين طويلة فى المجتمع الآلى ولكنه لن يموت فى الأغلال ·· ان المجتمع الآلى يســتطيع ابتداع رفاهية ولكنه لا يســـتطيع خلق الفكر ·· وبدون الفكر ، لا توجد العبقرية ، وان مجتمعا محروما من الرجال العباقرة مقضى عليه بالفناء · ان المجتمع الآلى الذى يحل محل المجتمع الغربى والذى سيكتسح سطح الأرض كله ، سيفنى هو الآخر ، وان انهيار هذا المجتمع الآلى سيعقبه اعتراف بالموهبات الانسانية والعقلية ، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك ، ولكن ليس من روسيا · ان الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائى ، فلن يبلغوا تلك المرحلة ··

سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلى وسيستعمل النور الكهربائى لانارة الشوارع والبيوت ولكن لن يبلغ به مرتبة الرقيق ، ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال اليوم ، فى بربرية المجتمع الآلى الغــربى ، انه لن يضىء بنــور النيون خطوط الفــكر والقلب · ان رجل الشرق سيجعل من نفسه سيدا للآلات وللمجتمع الآلى ، مستعينا بعقله ومستعينا بقلبه ·· »

اننى أقول مثل قول جابرييل مارسيل : لست أغفر لنفسى لو مسخت القصة الخارقة التى كتبها جيورجيو ·· ولكنى أحببت جاهدا أن أضع يدك على بعض نبض هذا العمل الخارق العظيم ·· ودعنا نأمل أن نرى من الشرق هذا البصيص الذى يحلم به أحد أبطاله الذى مات عند أطراف الأسلاك الشائكة تحجب انسانيته ويريد أن يخترقها وهو يعلم أن اختراقها ممنوع ··